سعادة
د. يحيى سرجو يحيي بالافيتشيني

الدكتور "بالافيتشيني" هو رئيسُ وإمامُ الجَمَاعَةِ الدينيَّةِ الإسلاميَّةِ الإيطاليَّةِ. في عَامِ 2010 أصبحَ عضواً في المجلِسِ الأوروبيِّ للقادَةِ الدِّينِيِّينَ أثناءَ مشـارَكَتِه فـي المنتـدى الكـاثوليـكيِّ الإسـلاميِّ بالفاتيكان. ومنذ عام 2009 كان جزءاً من أكثر 500 مسلم نفوذًا في العالم.

سعادة د. يحيى سرجو يحيي

منذ عام 2014، شارك المجتمع الإسلامي الإيطالي، ممثلاً في جماعة كوريس (COREIS) الإسلامية الإيطالية، في أبوظبي مع مجلس حكماء المسلمين برئاسة شيخ الأزهر أ.د. أحمد الطيب وفي منتدى السلام في المجتمعات الإسلامية، الذي دعا له الشيخ عبد الله بن بيه بصحبة وزير التسامح معالي الشيخ نهيان مبارك آل نهيان. وبالتزامن مع هذه المبادرة، كان المجلس العالمي للمجتمعات المسلمة قد تأسس في أبوظبي، برئاسة الدكتور علي راشد النعيمي والأمين العام محمد البشاري الذي عُين في منصب العضو التنفيذي المسؤول عن الحوار بين الأديان.

الآن، وبعد مرور خمس سنوات على هذا المسار من التنسيق والمناقشات اللاهوتية والمؤسسية بين الممثلين المسلمين في العالم، يشرفني أن أقدم بعض الإرشادات المستوحاة من اللقاء الذي جرى بين القديس فرنسيس، قديس مدينة أسيزي، وسلطان مصر الملك الكامل محمد بن أيوب في ذكرى الاحتفال بمرور 800 عام على هذا اللقاء وبالتزامن مع الزيارة الرسمية للبابا فرانسيس في دولة الإمارات العربية المتحدة.

إن مبدأ الأخوة العالمي الذي يضرب بجذوره بين المسيحيين والمسلمين يُشكِّل أساس التحالف بين المؤمنين من أجل الدفاع عن رؤية مقدسة للحياة والجنس البشري والشهادة عليها.

مدينة أسيزي هي مدينة من القرون الوسطى تقع في وسط إيطاليا، ولا تبعد كثيرًا عن روما، عاصمة الجمهورية الإيطالية، ومن دولة الفاتيكان البابوية، الكرسي الرسولي لخليفة بطرس، رسول يسوع، عيسى بن مريم (عليه السلام).

وفي مدينة أسيزي في عام 1986، قام البابا يوحنا بولس الثاني، المعروف بالكنيسة الكاثوليكية كقديسٍ، بالترويج للاجتماع العالمي التاريخي للأديان، ودعا السلطات التمثيلية للعديد من الطوائف الدينية للسفر إلى مدينة أسيزي للصلاة من أجل السلام في ميدان بازيليكا للأخوة بالترتيب الذي يتبع قواعد القديس فرنسيس.

وُلد القديس فرنسيس، قديس إيطاليا، في أسيزي عام 1182 ودُفن أيضًا في أسيزي في عام 1226. وما زالت مقبرته حتى الآن مقصدًا لحج وزيارات وصلوات المسيحيين والمؤمنين بالأديان الأخرى الذين يعرفون كيفية التثاقف ولديهم احترام عميق ومشاعر جيدة تجاه القديسين الذين كانوا قادرين على حمل الشهادة أثناء حياتهم مما أتاح لهم التعرف على الله، إله جميع المخلوقات.

بالنسبة للزائر المسلم في أسيزي الذي يرى موكب الحجاج المسيحيين الذين يتوقفون ويتضرعون أمام ضريح القديس فرنسيس، فهناك ارتباط عميق ومتشابه مع ذكرى الحجاج المسلمين أثناء وقوفهم أمام قبر النبيّ محمد (عليه الصلاة والسلام) في المدينة أو أمام أضرحة العلماء والقادة الإسلاميين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، من السنغال إلى إندونيسيا ومن السودان إلى كازاخستان. هذه هي أول إشارة "عالمية" إلى التقارب الروحي والاحترام الأخوي بين المسيحيين والمسلمين الذين يعرفون كيفية التعبير عن إخلاصهم للأنبياء وللرجال والنساء الذين كانوا نماذج تقليدية للإخلاص والتنوير والذين تمكَّنوا من تجديد إيمان المؤمنين بتذكيرهم بالله عز وجل.

غادر القديس فرانسيس مدينة أسيزي منذ 800 عامًا في عام 1219 لخوض رحلة طويلة إلى العالم الإسلامي. وفي مصر بمدينة دمياط، التقى القديس فرانسيس بالسلطان

محمد بن أيوب، الملك الكامل. وقد كانت الخلافة الإسلامية تتم من خلال حكام إقليميين وكان أخو محمد بن أيوب، شرف الدين، الملك المُعظم، حاكمًا على القدس.

ربما كان الهدف الروحي للقديس فرانسيس هو الحج إلى القدس، ونتيجة لموت أحد الشهداء، تم إعدام بعض الأخوة الآخرين على يد حاكم الموحدين، يوسف المنتصر، وقد صدر هذا الحكم ضدهم نتيجة لإثارتهم الاضطرابات المدنية من خلال الدعاية الإنجيلية والاستفزاز بشأن رسول الإسلام.

وللوصول إلى الأراضي المقدسة، اضطر القديس فرنسيس إلى المغادرة من إيطاليا، والإبحار في البحر الأبيض المتوسط والوصول إلى مصر والعبور الفعلي لأراضي النزاع بين القوات المسيحية والإسلامية، مارًّا بخلافة السلطان محمد وشقيقه شرف الدين من أجل زيارة القبر المقدس والعلية وجبل الزيتون.

غير أن نوايا القديس فرنسيس قد تركَّزت في النهاية في جزءٍ واحدٍ من هذا المسار؛ وهو اللقاء مع السلطان الأيوبي محمد في دمياط، للشهادة على حقيقة الإيمان المسيحي، وتبشير الحاكم المسلم والحصول على السلام. ويستنتج بعض المؤرخين الغربيين المسيحيين أن هذا اللقاء، إن حدث بالفعل، لم يكن له نتائج عظيمة.

وهذه حقيقة، فالحرب استمرت لوقتٍ طويلٍ، وظل المسلمون يحكمون المنطقة ولم يصل القديس فرنسيس إلى القدس. ومع ذلك، يُقرُّ هؤلاء المؤرخون أنفسهم أن الحرب استمرت رغم حقيقة أن السلطان المسلم اقترح، وفق نصيحة والده من فراش موته، اتفاق سلام تضمن تبادل السيادة، بحيث يحصل المسلمون على دمياط ويحصل المسيحيون على القدس؛ إلا أنه ساد بين القادة العسكريين الغربيين العناد مؤثرين القتال من أجل الاستحواذ على المصالح التجارية لمصر وليس من أجل الدفاع عن المدينة المقدسة. ولذا قام المسيحيون الإيطاليون وحملة الميراث البابوي بخيانة القديس فرنسيس، بينما أراد أباطرة القدس والحلفاء الألمان قبول اقتراح السلطان وإنهاء العداء العسكري.

وبعد عشرة أعوام، في عام 1229، جدد السلطان محمد العرض على الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي أصبح ملك القدس دون خوض أي معركة ضد المسلمين وعلى الرغم من طرد البابا غريغوري التاسع الذي اتهمه بالخيانة، مستفيدًا من غيابه أثناء وجوده في الأراضي المقدسة، لتأجيج ثورة ضده والسيطرة على ممتلكات فريدريك في عهد صقلية.

إن إنكار تأثير لقاء السلطان محمد والقديس فرنسيس الذي كان سيسهم في العودة الآمنة للقدس إلى المسيحيين والاستحواذ عليها فيما بعد، والذي لا يزال حتى اليوم، على أماكن الحج والضريح المُقدس للمسيحيين، ما هو إلا تفسير مختلط ومشكك للتاريخ المقدس.

لا بدّ أن السلطان محمد والقديس فرنسيس، كمؤمنين بالإله الواحد، قد شعرا بشيء مشترك بعد لقائهما الذي استمر "عدة أيام". ومن المؤكد أن السلطان الأيوبي قد تأثر بقوة هذا الراهب الذي خاض بلا خوف هذه الرحلة الطويلة عبر البحر وساحة المعركة ومنطقة نفوذ المسلمين ليأتي ويرشده إلى مغزى "الدين الحقيقي" معرضًا نفسه لاحتمال الاستشهاد؛ حتى أن الأسقف المسيحي قد رفض بشدة إصرار القديس فرنسيس على طلبه بمباركة هذه المهمة.

ربما رأى السلطان في القديس فرنسيس رجلاً مؤمنًا يبحث عن حقيقة الله، مثله تمامًا، على استعداد للسفر والموت والتغلب على هذه المسافات وكذلك الصراعات الداخلية. فكلاهما نال قسطًا من خدمة أمتهم وحصلا على نفوذ وقاعدة مجتمعية ولكنهما لم يتعلقا بالممتلكات الدنيوية.

إننا مقتنعون بأن القديس فرنسيس قد نجح تمامًا في مقصده لكيّ يوضِّح للسلطان المسلم حقيقة الإيمان المسيحي على نحو لم يفعله أحد قبله أو بعده؛ بما في ذلك الكهنة والحكام والجيوش المسيحية. ونحن نتخيل أن السلطان المصري، الذي ينحدر من أصلٍ كرديٍّ، كان مندهشًا لاكتشاف موهبة القديس فرنسيس اللغوية، لرجل يتحدث من خلال التغلب على الطوارئ الإنسانية والاتفاقيات الدبلوماسية، ويستطيع أن يُعبِّر عن أن

الإيمان بالله هو السبيل الوحيد لتحقيق السلام في مواجهة المحن البشرية.

وبالتأكيد، لم يكن بإمكانه أن يعرف أن هذا الراهب نفسه كان، في الماضي، قد ألان ذئبًا كان يخيف سكان مدينة إيطالية، وأنه في المستقبل، سوف يتحدث مع الطيور الأمر الذي أثار الذهول والإحراج بين أصحابه المقربين. ولم يكن السلطان المسلم يعرف جذور القديس فرنسيس النبيلة والأرستقراطية ومعارضته العنيفة لعائلته ونذر نفسه للفقر. ومع ذلك، لا بدّ أنه قد أدرك تقارب معجزة اللغة الإلهية التي يسردها القرآن الكريم للمسلمين، وقدرة بعض الناس، مثل النبي موسى (عليه السلام)، على التحدث مع الله أو مثل الأنبياء آدم ونوح ويوسف (عليهم السلام) ومحمد (عليه الصلاة والسلام) على ترتيب وإدارة الخلق.

وعلى هذا النحو، لا بدّ أن السلطان قد أدرك الثراء الداخلي الذي انبثق من بساطة الملابس ونقاء سلوك محاوره المسيحي، وفي الوقت نفسه، ظهور الكرامة وغياب السوقية والعنف في تصرفاته.

ولا يمكننا سوى أن نتخيل إعادة اقتراح إجراء حوارٍ سبق أن حدث في الماضي بين النبيّ محمد (عليه الصلاة والسلام) والوفد المسيحي من نجران وبعض الأحاديث المتعلقة بشخص يسوع، عيسى بن مريم (عليه السلام). وربما كان بإمكان السلطان المسلم والقديس المسيحي بنفس الطريقة ومن خلال الحوار والصمت المشترك مقارنة أنفسهم واكتشاف أوجه التشابه والاختلاف في الكرستولوجيا أو الشعور المشترك كمؤمنين بالله الرحيم.

وتروي بعض الروايات أو تصف محنة، اختبار النار، التي قدَّمها القديس فرنسيس إلى السلطان كدليل على حقيقة إيمانه. وفي الواقع، يوضِّح القديس بونافينتورا في كتاباته عن حياة القديس فرنسيس التي يصفها بأنها حياة "مضاءة بالحب التام"، أن السلطان اقترح نقاشًا لاهوتيًّا مع وزرائه؛ "لكن فرنسيس أجاب بأنه لا يمكن مناقشة الإيمان باتباع قوانين العقل، لأن ا لإيمان أعلى من العقل؛ ولم يكن من الممكن مناقشة الكتاب المقدس

لأنهم لم يقبلوه. ولكنه بدلاً من ذلك، توسّل إليه بأن يوقد نارًا ويدخل إليها مع رجاله، ورفض السلطان " وهكذا لم يكن هناك اختبارٌ للقوة أو المنافسة المسرحية.

وللأسف، تصور بعض اللوحات الجدارية تفسيرًا للفنانين يقلبون قصة اللقاء بين القديس فرنسيس والسلطان؛ فهم يقدمون، بناءً على ميلهم نحو الجوانب الظواهرية أو الدرامية، بعض الرسوم التي توضِّح بدلاً من تمثيل "حب الله الملتهب" لدى القديس أسطورة الشجاعة أو المهمة المستحيلة المتمثلة في تبشير الكفار.

وقد تمثل خطأ هؤلاء الفنانين في ربط أمور زائفة تاريخيًّا، مثل اختبار النار، بانتصار وخسارة - للمسيحي والمسلم على التوالي، كما لو كان ضروريًّا من أجل الاعتراف بأسطورة القديس أن يتم إثبات قوته في الإقناع وخضوع المسلم أو، بدلاً من ذلك، عرض وقاحة السلطان وقدرة الراهب على الصمود في وجهه.

رغم أن الاستقبال والضيافة والاحترام وتبادل وعرض الهدايا (التي رفضها القديس فرنسيس من أجل أن يظل متمسكًا بنذره بالفقر) وتحية السلام بين السلطان المسلم والراهب المسيحي هي علامات واضحة على الاعتراف بالإيمان والقداسة والمسؤوليات التاريخية العالمية ولم تكن من جانبٍ واحدٍ فقط.

إن ما يكتشفه كل واحدٍ في الآخر هو قيمة الطريقة المختلفة للتمسك بإيمان محدد موجه نحو خدمة الله وعباده، وعلى هذا النحو يكتشف المسلمون والمسيحيون أنهم إخوة وليسوا أعداء أبدًا.

إن الأمر الذي لا يعرفه المؤرخون ولا الفنانون كيف يروونه أو يرسمونه هو تحقق معرفة حقيقية واستشهاد فكري وتحوّلٍ داخلي لمس قلبيّ الرجلين، حتى قبل أن يلمس عقليهما أو ثيابهما أو تصورات خارجية ودينية وثقافية. لقد اتبع تاريخ هذا العالم، كما ذكرنا بالفعل، مساره الذي أدى، في أقل من عقد من الزمن، إلى اتفاق سلام ونهاية المعارك بين الجيوش المسيحية والإسلامية.

لذلك نحن مقتنعون، على عكس العديد من المؤرخين، أن هذا اللقاء كانت له نتائج وعواقب كبيرة، سواءً فيما يتعلق بالسلام بين المسيحيين والمسلمين والغرب والشرق، وكذلك فيما يتعلق بالشهادة الحميمة للمسيحية التي فسرها القديس وسعيه من أجل الحصول على معرفة كاملة وعميقة ومتكاملة وعالمية بالخليفة المسلم.

وحتى فيما يتعلق بمفهوم الاستشهاد والتبشير، يبدو من المستحيل أن ننفي الإمكانية المتبادلة للتغيير لكل منهما وأن يكون تحت تصرف محبة الإله في اللغة وجوهر الحقيقة الذي يسمح للمؤمنين، المسيحيين والمسلمين على حد سواء، أن يكونوا قريبين من الله وأن يكتشفوا صورًا أخرى من التفاهم والشهادة والعمل والتأمل. وإذا كان السلطان قد جدد عرضه بشأن القدس للإمبراطور فريدريك الثاني مقابل تحالف واحترام السلطات الإقليمية، فإن القديس فرنسيس، عند عودته من مصر، قد تحوَّل "تحولاً جوهريًّا": فقد أصبح يتحادث إلى الحيوانات ويحصل على طاعتها، ويقوم بمعجزات ويستقبل المصابين بمرض الجذام"، وتخلى عن توجيه الرهبان الصغار؛ حيث لم يكن راضيًا عن إضفاء الصفة المؤسسية على الأخوة الصغيرة التي أسسها هو نفسه، ولكنه كان ممتنًا لله على موافقة البابا المعقدة على حكم البابا هونوريوس الثالث في عام 1223.

وبالنسبة للكاردينال المسيحي الكاثوليكي، جاك دو فيتري، الذي تشرّف بمعرفة القديس فرنسيس وكتابة سيرته الذاتية، فإنه يرى أن شخصية قديس مدينة أسيزي تجمع بين ثلاثة عناصر رئيسية وهي: التجديد الأخلاقي والروحي، من خلال حياة الزهد والبساطة والتواضع، والوعظ من خلال الكلمات الفعَّالة؛ الكلمة التي تلهب الحشود وتؤدي بهم إلى تحويل الدين؛ أي التي تدفعهم إلى إصلاح حياتهم؛ واللقاء مع المسلمين.

وربما يمكننا القول بأن هذه العناصر الرئيسية هي الآن، كما كانت في ذلك الوقت، ما زالت مُهمة وحاسمة لكل من المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء.

وفي الحقيقة، يجب أن ندعو بعضنا بعضًا بطريقة أخوية، كمسيحيين ومسلمين، إلى

التجديد الأخلاقي والروحي وتبني مواقف مليئة بالتقوى والفضيلة التي هي الترياق ضد الجهل وانحطاط القيم وإطلاق العنان للعنف وإساءة استخدام السلطة التي تمهد للفوضى والظلم بين المدنيين.

وبالنسبة للمسيحيين والمسلمين، هذه الأخوة لها أرضية مشتركة في الوحي الذي هو كلامٌ من عند الله وفي الإيمان بالتغيير الديني الذي ليس من هذا العالم، ولكن لا يدرك ذلك إلا قلوب المؤمنين المفتوحة أمام رحمة الله والذين يقتدون بأسلوب حياة الأنبياء والقديسين والعلماء وما يرشدون إليه من أفعال.

وبهذا المعنى، فإن اللقاء الذي حصل منذ ثمانمائة عامٍ بين قديس إيطاليا ومؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية للرهبان في العالم وسلطان مصر وسوريا، يمكن أن يكون مصدر إلهام للأخوة بين المسيحيين والمسلمين في الشرق والغرب على حدٍّ سواء، وتعليم طريقة للحوار بين المسؤولية السياسية، والتي تأخذ في الاعتبار التمثيل المقدس والديني وتضع السلام في حسبانها.

وبالنسبة للمؤمنين من المسيحيين والمسلمين، تُعد هذه فرصة للتأمل في القداسة التي لا يحدها مكان أو زمان أو بنية دينية بالإضافة إلى التأمل في شرعية السلطات الدينية والوطنية والقانونية والثقافية التي تحتاج إلى تأمين عملية تاريخية وروحية دون شكليات أو أشباح في مواجهة العالم.

إن الأعمال الأدبية تصف القديس فرنسيس على أنه معلم للتواضع والسلطان محمد بصفته ملكًا صالحًا استمع بعناية إلى محاوره. وبالتالي؛ فإن العدو الذي كان عليهم القتال ضده، كما هي الحال بالنسبة للمسيحيين والمسلمين في مجتمعنا المعاصر، هو الوقاحة والغطرسة والعمى والصمم ونسيان الهوية الروحية والانسياق نحو الغرور والجشع والمصالح التجارية الفردية التي تتجاوز احترام حياة الأسرة وكرامة العامة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك زيفٌ وبحثٌ عن السلطة من خلال فن الاستفزاز والابتذال.

إن النبـل، وفقًـا لأتبـاع القديـس فرانسـيس وصـلاح الديـن، لا يعنـي أن تكـون أسـيرًا للمظاهـر وتأثيـرات نظـام التدنيـس؛ بـل أن تكـون مثـالاً علـى الفقـر الروحـي وبـذل الـذات، كمـا يسـميه العلمـاء المسـلمون المتأملـون، وأن تقاتـل، بعيـدًا عـن قصـور أسـيزي أو بغـداد، مـن أجـل البحـث عن الصالح العام للبشر.